عفاف السيد

سراديب









سراديب

مجموعة قصصية

عفاف السيد

لوحة الغلاف للفنانة : Diane Banken

الطبعة العربية الأولى سبتمبر ١٩٩٨

رقم الإيداع : ١١٧٤٢/ ٩٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-291-113-2



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

عفاف السيد

سراديب

مجموعة قصصية



كتبت قصص هذه المجموعة عام ١٩٩٦

بوسيدون :

"بعض التفاصيل تكفى لان تكون اهم منجزات الله"

◆

إلى عينيك .. بالتحديد

عفـــــاف



أستلقى على ظهرى ، أعد النجمات حتى بيت صلاح ، بيننا تتوالى انسكابات السنين ، لا أعرف إن كانت ما زالت نجمات تعرفنا ، لا أفوت بالحنين على السويس ، لكنه أوحشنى ، أستلقى على السرير وافتح فرجار رغبتى ، لا أحب الرجال الناعسين فأنطلق ، أرفرف بين الأوز العراقى فى أوائل المساءات الرطبة ، سأولى وجهى صوب مقاصدهم ، تقول مريم الأوز يقصد الشرق ، مريم يا غبية ، عبروا القناة وجاءوا من الشرق ، نعم عبروا القناة يا عفاف وأقاموا الحصون ، مريم يا غبية ليس هذا شرقنا ، ليس للأسرَة جهات والمنافذ للبطون بعرض القناة دون متاريس وأقنعة ، الشرق ناحية يدنا اليمنى ، يفرد الخرائط وفى لون عينيها الخضراوين يضع نقاطاً ويقول (الدلتا) ، تفتح ذراعيها وتضمنى ، على بعد خطوة فى منطقة محايدة من بقايا تذكرنا نقف ، وحشتينى يا عفاف ، ليس للكلمات مدلولات مناسبة مع الموقف ، غبية يا مريم ، تشبهين خط بارليف لحظة الاقتحام ، تهاجر شرقاً وراء الأوز فيغلفها منطق الدونية ، تشبه الفرنجة وتقص شعرها البلوند وتفك رموز الفيزياء ولا تعرف مكامن النجمات المطمورة بحيوات سالفة ، يلوح صلاح بتحية معلنة ويرفع عينيه إلى نجمتنا اللامعة التى قالت مريم إنها "الزهرة" ، مريم يا غبية ، الزهرة ملونة وتلك نجمة عشقنا الساذج ، وحشتينى يا مريم ، تضحك وتفرق شعرها من المنتصف ، ندبة غيرتى فى مفرقها تحت أصابعى وأقول آسفة يا غبية ،

تضحك بطفولتها المستوردة ، جميلة يا مريم ، تدفس في يدى صورة مهترئة، غامقة ، وقفنا معاً أمام باب المدرسة ، أدخل الرجل رأسه في جراب أسود وطالت وقفتنا وأردت أن أضحك ولكن عيوني البنية تحدج في صداقتها الباسمة وأكاد أبكي ، أكرهك يا مريم لأنه كان يهرب إلى عيونك الخضراء ولكنتك الطازجة ، أدوس شرودي وألوح له عند السور المهدم فيقبل الهواء وأمضي مع الأوز إلى دنيا لا تعترف بالجهات ، كانت مريم صادقة ، فشرقها ليس شرقي ، والطريق بطول القناة يشبه الزمن ، طول القناة يا مريم ليس ١٦٨ كم ، لقد كسبت في المسابقة لكي أموت ، من يملك اليقين ونحن على الحافة ، قال "برافو" وأعطاك القلم الأخضر والسلسلة ، وصلاح يرسم قلباً فارغاً وينسى اسمي ، يقف مرحباً وبقواعد الايتيكيت يقول أتشرف بسيادتك ، أنا يا صلاح ، يبتسم بغباء وقد أطلق النجمات من عينيه وزجر الأوز وكتب أرقاماً حبلى بالأصفار ، وقال .. آسف يا هانم ، وأسدلت شعرى المنعم ، وقبلت مريم ونحن عند حدود الطفولة وقلت "باى" ، امسكت أصابعه ورجوت الأوزات أن تتمهل ، أنا لا أعرف أين الشرق يا مريم ، وكنت أندس في أخطائي وأقول للرجال محتاجة محبتكم ، فيضحك بعضهم ويتجه إلى شرقك ويذبح بعضهم الأوزات ، وجميعاً كانوا يطفئون النجمات التي بيننا ، لا أرى القناة الموغلة في الحنين ، أمد أذرعي باتجاه الناس ولا أريد غيرك ، يرفع رأسه عن الأوراق ويستفهم ، أمد له يدى بالكارت المكتوب بالقلم الأخضر ، مريم يا غبية ، لك خط منمنم ورائق ، يقول : الدكتورة مريم طلباتها أوامر ، أخفي

أصابعى وأسدل عيونى ولا أطلق وحشتى ، يبتسم ويلوح بنفس الطريقة فأجلس ، يسألنى عن اللغات التى أجيدها ، ليس للأوز سوى لغة الهجرة ، والنجمات أخفيتها فى عينىّ المسرجة بالفقد ، لم تعرفنى يا صلاح ولم تشعر ، يفتح الأدراج ويسرد حكايات طفولته ، ويقول مريم رائعة ، كنا زميلين فى السويس ، عشقنا القناة والبواخر ، جلسنا طويلاً نراقب الراحلين جهة الشمال ، غبى يا صلاح ولماذا الرحيل يكون شمالاً ، يذهب الأوز العراقى إلى الشرق ، غبية يا مريم ، البواخر تهاجر للجنوب وتختنق عند المضيق ثم يلدها المد وتذهب إلى الشرق ، دائماً هو شرقى أنا يا صلاح، ويقول : لنا ذكريات جميلة فى السويس ، غبية السويس التى تبسط القناة للآخرين ، قلت له ونحن لاثذين بالخليج تعال يا صلاح نطوى القناة ونخبئها فى قلوبنا فلا يرحل الناس ويتوه عنا الموت ولا يعرف الحقيقة سوى النجمات ، استلقينا على الحافة وضحكنا وجذب أصابعى يطرقعها ويمسد شعرى ويبللنى بالعشق ، يزيح الهواء بقبلة فيدفع السنوات المتكلسة على قلبى ويقول أهلاً مريم أوحشتنى ، يضم يدها ويفرق الفرح على الخلاء ، تفتح دهشتها الخضراء وتضمنى وتقربنى منه ، ألم تعرفها يا صلاح ، يسكب تداعيه على أصابعى ، يتملص من مضيق اللحظات ويحدج فى أصابعى الرفيعة ، يفرد أصابعه تجاه السويس ويلمس وجنتى ، هنا كانت شامة ، إنها على الخد الأيمن يا صلاح ، من يملك اليقين ونحن على الحافة ، نشبك أصابعنا وننضم معاً ، نطلق الأوز فى كل الجهات ، ونفرط النجمات ولا نحسب طول القناة ، نشبك أرواحنا معاً ونبكى ، غبية

يا سويس ، من يعطينا اليقين الآن ، يضحك وينغم الكلمات يقول ، أنا المهندس صلاح ، تبتسم عيونها الخضراء ، تقول أنا الدكتورة مريم .

أفلّت أصابعى واحشو النجمات فى قلبى وأرص الأوزات فى سراديب عمرى وأرسم بالقلم الأخضر بمقياس رسم ١ : إلى ما لا نهاية قناة بلا جهات ، بها ناس فرحون ، وسنوات قادمة ، وحلم بعودة ، وأمان ، واكتب ذلك كله الآن .

هل ستقرأ مريم . هل سيعرف صلاح أنى .. أنا ، عفاف السيد .

***

أهازيج

كنت أجفف جسـدى عندما انتابنى نفس الشعور بالفـيض الذى انهمر من نقطة سحيقة خلف ذاكرة لابد وأن أتقن تقنينها .

كان قد ضرب موعداً باكراً وهو لم يعرف بعد أن نوبتى فى النوم تكون صباحاً .. وعلى غير عـادتى فى إفشاء الحلم خشيت أن أحلم هذه الليلة .. وتمنيت لو كان ذلك متاحاً .

***

أجفف جسدى من نثرات الحلم هذا الصباح ..

أستـعد أنا لمقابلـة رجل آخر .. وها أنا انكمش عند أركـان التخلى عن المواثيق التى بذلتها وأنا ذائبة فى انهمار غيثه الذى رطب جدبى .

وينهمـر الماء الدافئ يغسل ذكـريات الأمس .. ولم يكن يزيل أكـثر من غلالة الزمن المهلهلة عن براكين العودة إلى منابع ذلك الرجل البعيد .

أنا لم أستطع قط التخلص من نظراته التى أرهقنى حملها فى كل الأيام الفائتة.

***

عندما جلست وصديقـتى فى شرفة غرفتنا .. فى تلك المدينة البـعيدة .. ضحكـنا ونحن نفيض بالمودة للعـمر الذى كـان لنا فيـه قصة عـشق لنفس الرجل .. الذى أحبنى وحدى فيما بعد وتركها تتعذب ..

لم أدرك مدى أن يتعذب شخص وأنا مغموسة فى الوجد والفيض .

***

عندما خلعت صديقتي ملابسها مساءً .. كانت تسكن جسد أنثى لم يدركها فيض العشق والانهمار .. كانت تشبه غيمة منسية على حافة السديم .. فلم يصلها هواء يمددها ويبعثر تكثفها إلى شهوة .

الماء في الدش يجلجل على جسدها الذى اكتشفت أنه لا يشبه جسدى.. ذلك الذى تعبد فى محرابه الرجل الوحيد الذى كانت قصته ممتدة فيما بين جسدى وقلبها

***

جلس أبى والرجل يقترح حاسماً أخذى بحقيبة ملابسى .. إلى بلاد ليس فيها صديقتى ولا روابط تأخذنا إلى نظرة تحزّم ثقتى بغيرتها .

بلاد ليس فى حدودها رائحة للشوق والاعتداد .. لا ينساب على جسدى فيها لمحة من جنون رجل أول ما رأيته استكان عقلى فى صمته .

وانطلقت عيناى إلى أدغاله تستقى الشوق

***

جففت جسدى .. ضفرت لىّ أمى شعرى بإتقان .. وبعدد مرات إدراك نفسى ، زجرتنى وهى تسحل كل شعرة تجرأت على جبهتى ولم تطلق شعرى من أسرها أبداً

فى العيد الماضى وعدتنى أن ترسل لى شعرى .. لكنها صباحاً .. فرقت حلمى إلى ضفيرتين مصمتتين

***

على حـافة السـرير .. اختـبأت من انتـهاك الليلة الأولى .. واسـتنزاف الليلات الـتى انفجرت لسنوات كـثيـرة كانت بدايتـها أنى حملت حـقيـبة ملابسى – فقط – إلى حيث لا تفيد الملابس .

***

فى اللقاء الأول أهدانى ديواناً يحمل اسمه ..

وفى اللقــاء الثـانى ابتـسم وهو يُـذوِّب أنوثتى فى نبع بدأ من عـــينيـه الخافتتين ممتداً عبر شهوتى إلى ما بعد النشوة .

***

قالت صديقتى إنها تجاوزت الحب مـن زمن .. وأنها بعد رحيلى فقدت عنصر المنافسة .. فبدا لها ذلك الذى عشقنى وأحبته .. رجلاً مهزوماً جداً.. عادياً جداً .. !!

***

جففت جسدى .. واستكنت فى حـضنه ندية ومتمنية لو يروينى مرات أخَر ..

ليـس أول رجــالى هـو .. لكــنه .. أول من فـك شــفـرتى الســريـة فامتلك البداية .

***

عندما نهب دغلى فى مرتنا الأولى .. كان يعتنى بالتفاصيل التى ذكرتها له فى دردشة سابقة عن بكارة جسدى .

***

كنت أعرف أن الذى يحفر فى تاريخ الأنثى أول من اقتحم الدغل واعتنى بكل الأوراق المنسية فى العتمة .. ولم ينح الأغصان المدلاة فى أركان الروافد ..

وأنه وهو يفتش فى حقيبة ملابسى ، الوحيدة التى أملك ، لم يكتشف الطريق إلى دغلى .. !!

***

عندما شرَّع ذكورته نحوى .. لم أكن مستسلمة لتوهجه فعصف بى تماماً .

وعندما لملمنى بحكاية أخيرة .. واستكان وهو يجمع القطرات المتبقية على حافة دغلى .. أدركت أنه حين أتى إلى بكارتى .. لم يستل رجولته ليباهى نفسه ليلاً .

***

جففت جسدى مراراً .. وضمنى ببلله فى كل مرة .. فلم تفاجئنى أبداً النشوة .

استكنت إلى رغبته التى رغبتها ..

أحب هذا الرجل .. له رائحة تستفز أنوثتى المتوهجة .

***

عندما لمح رغبتى تنسكب فيه .. عرض أن يوصلنى ..

فى الطريق .. أيقنت أنه لن يكون من رجالى أبداً .. فقد بدأ كما يبدأ كل الرجال .. !!

***

رجل عادى

بالتحديد .. سأحاول أن أكون أخرى ، فهذا الحب امتشق التعاسة .

برتوش بسيطة وبعض الخيبة والغباء ، سأبدو كما لو أنى أنا ، لكنى بالتحديد سأكون غيرى تماماً .

سأكف عن حبك .

وبشىء من الدقة ، سأحاول ذلك ، ولن أخبرك ، وربما لن تفهم وحدك. سأدعى أنى طيبة ، وبتلقائية سأوزع فناجين الكابتشينو وأخصك بالفنجان الأكثر سخونة .

سأكف عن غيرتى .

سأحاول أن أدرك أنك رجل عادى مثل كل من حولى ، بل ربما من حولى متميزون للغاية ، وانت ، سأحاول أن أدرك أنك عادى جداً ، وأن النساء اللاتى أغار منهن فعلاً متميزات ، وأنك أبداً لن تلفت نظرهن ، وسأحاول أن أتيقن أنهن غبيات للغاية وحتماً لن يدركن تميزك .

لن أغار أبداً - أعدك - فأنت عادى .

بالتحديد .. وبكل دقة .. سأكف عن حبك ، وابدأ تلك التعاسة من حيث تركتها منذ التاسع عشر من حزيران .

(انتصفت المسافة مع وافدين جدد) .

واقسمت أن أكون لك ، وأنت خبأت رأسي في صدرك وابتسمت ، وبالتحديد .. خبأتني تحتك ، ونحت في غديري لحلمك مجرى مسكوتاً عنه في الأعراف ، ضحكت ، ومعك أنا سقطت حواجزي ، فرمحت ، وعند أول السلمات وقفنا بلهفة الرحيل الأول إلى برودة لندن مع وعد بهواتف ورسائل وعودة غير موكدة .

وبالتحديد .. لن أغار على رجل عادي .. منحوت في بياض الوهم برهافة النور .. ويستوى الليلة لمعان العشق وبريق الدموع .

"لن أبكي الليلة .. ربما أبكي بعد عام" .

هذه عبارة مقتبسة من سكارليت ، ذلك للأمانة وتفويت الفرص على الحاذقين ، لن ابكي حقاً ولا بعد ألف عام وذلك لتعلم فقط أي امرأة تلك التي تحتك مستكينة وظامئة .

وبالتحديد .. بيني وبينك الواقي الذكرى يفرد مسافة في شسوعة الرحيل ، فيبدو اللقاء مثل كابوس معتم تغوص فيه الروح داخل مرجل لزوجة . وأنت لم تأمن رُغم أني أكدت لك لتنزع البلاستيك عن حلمي ، وتدخلني من ناحية العشق .

"لا أريد منك ابناً"

أردت فقط اقتناص ابن دافئ ، لكنك أبداً لم تأمن مكري ، وقد بدأت أضج ، وملمس البلاستيك يفجر موتاً ، فلا أنا لك ولا أنت تهبني حلمك المخنوق وحده على حواف الرغبة .

ملخص الحلم :

"فى برد لندن كان رجلاً شديد التميز فى ليلة حلم بأنى أحمل ابناً ، ولداً ، ولدته أنا وبذره هو فى رحم الشبق ، كان الولد جميلاً مثل كل ولد فى التمنى" .

ولكنه مجرد حلم .

وكنت أنا على ساحة الواقع أرتب لابن أجنيه من انسكابات اليوم أو ربما من أول دفقة قوية بعد غياب الصدفة . لكنه ادرك وأجهض حلمه وترتيبى بواقى بلاستيك متضمن شسوعة الخيبة

وبالتحديد سأحاول بعد ثلاثة أسابيع حين عودته ان اكون مختلفة .. جديدة ولكن كما أنا .

ربما أعرف رجالاً آخرين ، بالتأكيد سأعرفهم عقاباً له على عدم احترام غيرتى .. وأخبرهم ولكن ربما أكذب على بعضهم قبيل النشوة أنى مريضة ، وأخاف عليهم من العدوى ، وأراهم يجفلون . ثم يتخثر غيثهم ، وربما نسوا سراويلهم ، حتى لو اكتشفت الزوجات ذلك ، وإن لم يجدوا مبرراً فسوف يشكرون الله وربما كان ذلك جميلاً فعلاً ، إذ سوف يتجهون يوم الجمعة إلى المساجد بعد ليلة خميس فاشلة أغمدوا خلالها الأوقية البلاستيك فقط فى فجوات جافة وباردة ، وقطعاً ستحفظ الزوجات السر بعد تبادل الأوقية واللذات .

وربما أضاجع رجلاً واحداً فقط وأعتذر له ببساطة . وأنا أحاول الا أنسى بعض ملابسى ، عن الفشل والعدوى

بالتحديد سأجعلك عادياً ، لن أخترع حكايات أضمّنها اسمك فى جلسات الصحاب ، ولن أذكر اسمك مطلقاً ، إذ ما جدوى تذكر رجل عادي للغاية ، وإن ذكرتك عفواً سأتحدث باستهانة ولن أتوقف بغيرتى أبداً أمام نساء كن عشقنك من أحاديثى أنا ، وقرأنك بفرح فى قصائدى أنا وعرفنك جميلاً فى رسوماتى أنا .

بالتحديد .. سأكتب قصائد عذرية بها عشق شفاف وبراءة امرأة متزنة للغاية وتعشق للمرة الأبدية ، لن أكتبك فى قصائدى خلال الثلاثة أسابيع المقبلة ، حتى لو أحرقتنى لحظة الكتابة ، وجردتنى الأفكار من بقية فضيلة ادجج بها نظراتى الشرهة ، ربما أدونك سراً فى أقاصيص لن أنشرها ، أو أجمعك فى علبة الهدايا الصغيرة التى أوسدها خمس شعيرات من أنحاء جسدك .

وبالتحديد .. ربما أقص عنك حكايات غبية ، وأختلق مواقف مخجلة وأنسبها إلى طبيعتك البراجماتية ، سأحكى أنك ربما تكون فاشلاً تتخفى وراء الأوقية الشاسعة وتحشو مواضع اللذات بالكذبات المضحكة ، سأجعلك عادياً وتافهاً .. لن تحفل بك امرأة .

بالتحديد .. سأحاول أنسى شفرتنا السرية ، ولن أضحك طويلاً وأنا أقرأ "لوركا" وأدرك أنه ليس يعنى دم الحيض فى أحاديثنا الهاتفية ، وسأحاول الا أحسب مواعيد دورتى الشهرية وأربطها بحضورك ، ولن أوقفها بهرمون البيرجستوجين لأنك لا تحب "لوركا" ، لن تجد امرأة متميزة تخاطر بالبيرجستوجين لتهبك لذة اختفاء "لوركا" .

وبالتحديد .. لن أخاطر بموقفات الحمل ، وأشوش على غدتى النخامية، وأوقف حيضى وأعتنى بالتفاصيل التى يرهقنى تذكرها ، لن أبحث عن وسيلة لنزع الشعر وتلوين الشعيرات اللطيفة البيض فى مفرقى أو أختار أقراطاً مبهرة وملابس داخلية تحبها .. لن أرتدى صداريات وسأترك صدرى حراً تماماً .

وسأحيض وقتما أحب ، ولن يضحكنى "لوركا" أو "السيموطيقا" أو حكاياتك الغبية عن أناس أغبياء ، ولن يفرحنى أبداً تدوينى فى قصيدة أو سجنى فى حروف تجرحنى حوافها وأنا أتملص منك ، سأخونك حتماً ، ولن أشعر بفرح أو أفتخر مثلك ولن يريحنى ذلك ، ولن أخبرك لتغار وتدرك أن غيرتى شديدة التميز .

وبالتحديد .. لا اريد ابناً بلاستيكياً ولا رجلاً عادياً .. ولذا لن تغرينى بعد ثلاثة أسابيع الغرف ذات الأرقام .

"غرفنا الخاصة جداً .. الرائعة جداً"

ولن يجرجرنى حنينى إلى حيث أجد بعض أثارك العجلى فى استدارات جسدى ، ولن أدلف إلى الشوق وأنا أتبع مناطقنا على النيل وأحصيها كل ليلة قمرية وكل فجر شارد ومساء ثقيل . لن تأخذنى عيونى إلى تتبع مسلتنا وأنا أتحاشى الناس ومنحنيات الطريق وسرعة العربات والقدم . لن أسرب روحى كل لحظة إلى أنحاء الكون بحثاً عنك وأنت ربما تؤصل لحكاية قادمة ترشقها فى أحراش غيرتى .

وبالتحديد .. لن أسألك حين حضورك كم امرأة تناوب مكانى فى

حضنك ، وكم من الكلمات التى أعرف مخارجها ولكنة أحببتها وحكايات ربما تكون قصصتها لى أو حكايات جديدة تماماً وستقصها لى بعدهن ، لا تقص على حكايات قديمة سمعتها من تناوين خصوصية مناطقى عندك .

ماذا تقول لهن ، هل تضحك ، هل تشمهن وتستغرق مغمض العيون مفتوح الروح باتجاههن أنا ناحية الشرق ، بل أنا فى جنوب شرق ، بل ربما، أنا لا أعرف موقعك وأنت تساوى صرخات لذتك بصرخات ألمى ، وتضاجع نسوة أنا لا أعرفهن ، تخفى وجوههن فى صدرك بل تخفيهن تحتك ولا تدرك أبداً من يكن دونى

بالتحديد .. هل يشممنك ، هل تميز روائحهن وتذكرنى ، هل فعلاً تذكرنى فى لحظة النشوة ، لا بل فى كامل شبقك واعتلائك أجساداً ليست فى لون روحى ، واستنشاقك روائح مصطنعة

بالتحديد . لا أريد رجلاً يؤلمنى ، يتعمد أن يؤلمنى مع امرأة ذات رداء أخضر أو امرأة فى غاية السخافة والأنوثة

رجلاً عادياً للغاية ، يبتز جنونى ويضطرنى أن أدجج انهيارى بكبرياء مصطنع ، فأجفل من لمسة ساخرة ، وأجمد فى همسة مستفزة ، وأرجوه بنظرة لا يفهمها أن يكف عن تجريحى .. أن يفهم

وبالتحديد .. بكل دقة ، أريدك أن تفهم ، أنى امرأة شديدة التميز ، وأريد ابناً دافئاً .

***



ناقصات عقل

بعدما تذوق جسدى .. أعلنه منطقة نفوذ .. وبرهن بإعلانى أن التغليف أنسب وسائل الحفظ .. كى لا يضطر أن يتوتر لو لمح أحد ما أظافر قدمى .

لمت شعرى الطيب فى طاقية كورشيه شغلتها أخته سريعاً لتشارك بمجاملة .. غطيت الطاقية بطرحة طويلة .. قال إن الشرع رسمها هكذا .. فكك ثنايات فساتينى .. وأفلت الخصر من المعقود فحوت أقدامى تراب الشوارع .

فى أول يوم قال – وقد ضبطنى أتحسس جسدى أمام المرآة – لك أن تفخرى .. أنى قد أسبغت عليك من ورعى وأنك إلى الجنة داخلة فى ركابى .. وليّك أنا فى الجنة .. ورعيتى أنت فى الدنيا .. أولست زوجك وأنت حُرمتى .. ؟

تلصصت إلى جسدى مراراً .. وسبحت .. أبدعنى الله وكان حراً أن يقينى كهيئتى بتلك الأكداس التى تعرقل روحى .. بارك أبى وأخوتى له .. على حين غضبت من المرآة لأنها لم تعكسنى كما أنا .

امرأة أخرى – قطعاً – غيرى تلك التى تتشح بالامثال دون وعى .

فى مساء اليوم نفسه .. شدنى حنين غامض لموتسارت فأدرت الكاسيت الصغير ، الوحيد الذى ملكى .. أغمضت عيون نشوتى .. ورفرفت على حواف السديم حرة وخفيفة للغاية .. وصفعة على وجهى

هوت قال : الموسيقى من الشيطان .. فتكسرت روحى .. وتناثرت مشاعرى مع بقايا الكاسيت ، الشيء الوحيد الذى كنت أملك .

لم أبك .. فلا شيء يبقى بعد تهدير الإنسانية ..

جمعت أقراطي المدندشة .. وتوكات شعرى .. وقلم روج رقيق كان هدية من صديقتي يوم ميلادى الفائت من أشهر .. وصورة ضمتنى مع أصدقاء المصيف .. كنت أقف جانب رامز وابتسامة نابتة فى نظراتنا البسيطة لبعضنا .. ووروقات دونت فيها بضع قصائد قال عنها مدرسى الدارعمى .. إنها نبتة لشاعرة مقبلة بتمكن .. وكتاب لغادة السمان .. وبقايا زهرات ألقى بهن عليّ فتيان المدرسة الثانوية المتاخمة لمدرستى يوم زرعت الاندهاش والتصفيق وأنا أنتزع لمدرستى كأس المنطقة التعليمية بمسرحية (أنا) كتبتها ومثلتها .. رصصت كل تلك الأشياء فى علبة ضمنتها ذاتى .. وأغلقت بإحكام من يخشى الاندثار .

غضضت طرفى ونحن سائران باتجاه بيت قريبته المريضة ، نهرنى عندما علقت على مشهد أضحكنى .. وسار واجماً يسلط عليّ نظرات شذراء تلسع ثباتى فأرتبك وأخطئ .. فينهرنى أكثر .. ويشذرنى أكثر .. فأخطئ أكثر .

عندما عدنا ، اتجه إلى دولابى وأحضر قوارير عطورى وأفرغها فى المرحاض .

تعودت ألا أسأل من اكتمل علمه .. ولكنه أفصح قبل أن يستدير عنى.. لينقلب على جنبه الأيمن وينام .. أن المرأة المتعطرة زانية .

قـررت ألا أتعـطر أبداً .. وأن أخـسف بـالصـابون الملون الـعطر الذى يجلونى - كل الأرضين الممكنة .

ضحكت مساءً وأنا أخبـره أن الماء طهور .. ولا يجب حتى أن نشاركه شيئاً فى نظافتنا .

قال : يجب ألا يشم الرجل إلا كل طيب من امرأته .. اذهبى فتعطرى .

لكنى لم أرد أن أزنى .

طلبت منه مراراً أن يهدهد روحى بابتسامة أو حتى يربت على أيامى بحنو ويخلى بينى وبين البراح .. ليتركنى ضجرى .

قال منذ الأزل والجدران نبتت لتحجب الناقصات عقل ودين ..

صمت لأنه هو الأدرى .

قلت بعد سنة رعداء بالتأفف والبلادة :

لم يرزقنى الـله طفـلاً .. والمنطق يـدعـونا أن نتطبب .. أريـد ولداً يمتص حيوية عمرى .. ويدفع وخم الأيام البطيئة الفارغة .. ويندينى قبل أن أتيبس .

قال : هذه إرادة الله .. فهل نعترض ونكفر .. ؟

قلت : ولكن الله عادل .. فكيف يتركنى وحيدة .. مقفرة ... ؟

كـان الصيف قـد أقبل بدورته الثـانيـة .. وأنا ما زلت فى تلك العـزلة ..

يغشانى صمت مدقع .. لا أعرف من أحوال الدنيا إلا ما يكدره .. أو يؤلمه.. أو يهواه .. كنت أتوق إلى غيث محموم يفجر نبتى .. وأن أصعد درجاً .. وأرى غيمات فرحة .. وهجرات الطير .. أن أفتح نافذة وأن يصطدم خجلى بعيون متلصصة وأن تتبتل أوراق (لى) بحميمية شعرى .. وان أهرع بين اللوحات والناس .. واصافحهم .. وأن أجرى .

لكنى كنت أطن فى أركان البيت الخاوى من متعة .. وأعود لألتصق فى الركن بين السرير والحائط .. وأنا أتداعى بشدة .

لم يفطن علمه إلى أنى (بنقصى) أسعى لـلاكتمال الحق .. مددت يدى عبر أكداسى ومن خلال شراعة الباب إلى جارة لنا لمحتها مرات تحمل كتباً وانطلاقاً .. أعطتنى كتاباً قالت عنه جغرافيا ..

لما فككت طلاسم أبجديته ورسماته .. غصت فى بحار (المقديسى) .. ورحلت مع (بن حوقل) خطوة خطوة وقفزت فوق قارات (الإدريسى) فأدركت أن الدنيا أوسع من خطوته .. واشهى من تفسيره .

وأعطتنى البنت المنطلقة فى مرات كثيرة .. تاريخاً .. وفلسفة .. وفقهاً . ومعارفا جعلتنى اسبح طولاً وعرضاً واوغل عمقاً وفرحاً ..

لمح تاملى .. فأوَّله شروداً .. واستشعر فرحى .. فأوَّله رضاءً ، وتوهم عفواً أن الدنيا أهدته عجينة شكلها كما يهوى فاستراح إلى أن خامته قد اتخذت شكل القالب الذى أعده مسبقاً .. ليصبنى مغلفة بغبائه .

تململ .. وتنحنح .. وامتشق عـادته اليـوميـة فى تضليلى ، ولم يدرك أن مقولة ناقصة العقل لم تتوغل فى عقلى ..

قلت : اكتمل اليوم نصاب علمى فقارعنى حجة بحجة.. وفكراً بفكر..

قال : يهديك الله يا امرأة ..

قلت : ما عاد يطمئننى ورعك ..

وقلت : خلقنى الـله مثـلك .. فكيف ينتـقص دينى .. ؟ ومن قـال أنى ناقصة الـدين وقد أوجبنى الله وحق عليه مـساواتى .. وسبحـانه انتفى عنه الظلم ووجب عدله .. صفاته عين ذاته فهو العدل العادل المعدول .

وقلت : هذى أكداسك التى غلفتنى .. لم أعـد عورة تدارينى .. أكمل الله بالمعرفة دينى .. بعدما أسبغت علىّ من عتمتك وسطحية تقديرك .

***

دوائر مفرغة

٣٥

انزوى خلف الدرج ، تهوى العصا على حافة كتاب الدين ، تتشنج يد الأستاذ على كتفى ، المعراج سلم من نور يخترق السماء ، أصعد السلم ودمعات جفت فى روحى ، سوف نموت ويلتقمنا الجحيم ، إننى أكذب على أمى دائماً ، أحكى لها عن بطولات زائفة ، فى حصة الحساب ضربنا وقسمنا وجمعنا ، أنا الأسرع دائماً ، صفق لى الفصل كله ثلاث مرات ، أكذب على أمى وأقسم أنى أكلت ، أجمع قروشى فى يد البائع وأحتضن المجلة ، أقرأ قصائده ، أكذب وأنا على مشارف السماء الأولى ، أسحب أنفاسى حتى يختفى صدرى ، رجوتها بالأمس أن تجتث جديلتى وأن تخفينى داخلها ، لم تفهم ، أنا لست مجنونة ، كان يزجرنى وأنا ألعب الكرة مع الصبيان ، وأقسمت له أنى لا أعرف الأرقام ، لكنه ضربنى ، ومع ذلك لم أحفظ الجدول وكذبت على أمى .

يضربنى الأستاذ رُغم أنى خبأت صدرى بعناية ، ولممت شعرى جيداً ، أتهاوى ، ينثر قصائده فى روحى كى أعيش ، سوف أخونه ولن يجد مبرراً لتعذيبى ، ينزلق جسدى من الوعى إلى متاهات محتملة ، معلقة من شعرى بين سماءين ، رائحة الدم تستبيح ألمى ، أمسد رأس الضفدعة فلا تحرك عينيها عن نظرة عتاب جارحة ، لها ملامح استسلام دون ضجيج ، تنبثق

رائحة الدم وأنا أعـدو مذعورة عبر سـماءات موغلة فى العـذاب ، احتمى بعينيه ، يصفعنى ، فى وجهى أخاديد للذكرى كانت أصلاً صالحة للدموع، يغرس أصبعى فى جدارات القلب ، أختـرق الأذين وأتجاوزه إلى البطين ، أدفع الصمامات بالعكس وأبكى ، يسيل الدم فى حصة الأحياء ، أخور فى انبثاقات الرائحـة التى تنخر استـسلامى ، يتناثر جـسدى بين قصائده ، باردة الدمـاء والدموع ، والـقلب ينفجـر على باب السـمـاء الأولى ، ليس على الجدران دم ، لـن تحيض النسـاء وهن معلقـات ولن يكذبن ، يتدلى نـثارى مـفـعـمـاً بالألم والرجـاء ، لن أدق المسـاميـر فى الأرجـل وأثقب القلب بالمشـرط، يـغـرس تهكمـه فى خـوفـى ، الدمـاء باردة للغـايـة ، ولم تغلق الضفدعة عـينيها ولم تهرب من حصة الأحيـاء ، يأخذنى فى حضنه الدافئ ولا أغلق عينـىّ ، قلب حبيـبى ثقبتـه القصـائد والنساء ، وكبـد حبـيبى لن يصلح للاستـمـرار ، يفرد قـصائده فى عـمرى فـلا أرى سلم النور ، أظل معلقة من روحى ، يضـعنى بكل بساطة فى كافة الاحتـمالات إلا الهروب من كـذبه ، عـبر مـوقف صـغيـر أحب امـرأة لا تكذب وتركنى تائهـة بين السـماءات ، لم يدرك إمكانيـة تجاوزى كل التـرتيبـات ، الاختـراق سمـة محرمة ، وأنا شققت السـدرة ومن عشقه ارتويت ، ولكننى أكذب دائماً وأنا موقنة بقدراتى ، وبأنى لن ألملم جـسده من العبارات ، ربما أتلوه بين الآيات وأكـذب وأنا مدركـة أنى لن أمر بالسـماء الأولى أبداً ، سـأهرب للدروب رسمها جنونى فى فجوات نسيها الله ، سيهرب قلبى من تحت النهد الأيسر إلى متاهات الخـلايا ولن يعرف الأستاذ أنى وأدت أنوثتى وعـدت نعجة لا

يعنيها الصعود على سلم النور ، ترتل السور القصار ويرعبها صوت العصا، وكان الأستاذ يجرجرني مع حركة الزمن ، وعيناى مثبتة على كذبة الأرقام ، ورائحة الدم المجدولة في حصة الأحياء ، أنكمش على عشقى وهو يقول إنى فأرة مهذبة ويجذب شعرى ، أتمنى أن ينفصل رأسى وأسترسل بين السماءات ، لكنى محصورة بين ادعاءات عشقه ، سوف نعلق من نهودنا لأننا نساء ، قال إنى بخمس نساء وإنى دافئة ، رجوت أمى أن تجتث جديلتى الكستنائية ، لكنها كانت معلقة مع أنها تعرف كذباتى جيداً ، وتدرك أنوثتى وتخبئها ولا تعلم أنى اكتشفت الفجوات فلم يشغلنى أمر حبيبى وهو يرتع بين الحور الأبكار .

يتكئ الأستاذ على أريكة زيفه ويدعونى ، أشبه نعجة سائبة ، وأكره الأرقام ، وحبيبى يمضى نحو الدوائر المفرغة ويضحك عالياً وأنا أذكره بوعده وكان يزيح بكارتى ويمرق إلى الجنة ، استباح جسدى كثيراً وأراد المكوث لأطول فترة ممكنة فسحق روحى متعمداً وأرغمنى على الانزواء فيما بينه وبين الألم ، وأغمض عينيه الكاذبتين وضحك ، ودائماً أصرخ ولا أعود مثلهن ، وأكذب على أمى ، وأحب الضفدعة ، يضغط الأستاذ على كتفى ويرشق العصا فى اطمئنانى ، كل أهل النار من النساء ، سأحتمى بأمى وأبكى ، لن أكون امرأة أبداً ، فى السماء الأولى سوف تعرج النساء ويكشفن النهود ويصرخن ، لكن الرجال الكاذبين دائماً يتكئون على الأرائك وحدهم وأنا متعبة للغاية ومحصورة بين سماءين بلا مبرر ، أبكى فى حضن حبيبى وأنثنى تحت الدرج ، أخبئ أوردتى من

الأستاذ وأقرأ السور القصار ، أربِّع يدىّ وأنا أقرأ وأغمض عيون قلبى واكذب ، لكنه كمش صدرى فلم يجد القلب الذى انزوى بين القصائد والحنين ، وتمدد حبيبى بين الحور ولم يتلق جسدى المنهوب وأنا أتداعى بأثر رجعى ، ويجف دمى على حواف السماءات فتنغلق صمامات القلب، تتشظى روحى بين الحنين والفقد ، ويعدن أبكاراً فلا يكتب حبيبى القصائد أبداً ، ولا يجد مبرراً يلملم به جسدى الذى تناثر بين الآيات .

***

أشجار السندباد

كنا نزرع العصى ..

نعفر الأيدى بالبراءة .. وننهمك فى غـرس أطرافنا الرفيعة فى حفرات نتخيلها تسع الزمن .. وتنبت سنين ماهرة فى جدلنا معاً .

ما تخـيلنا - رغم اتساع كون حواديتنـا - أن السنين كانت تطوحنا إلى أقصى المدى .. !!

وكنا نزرع العصى ..

ننشبهـا فى حفرنا الضاحكة .. ونـطلق الأسماء - التى فقط نعـرفها - على العروش الصامتة .

أسميت عصاتى ياسمين .. وفـاح العطر فى قلبينا الأبيضين .. وامتلأت عيوننا بخدر الشوق .

أسميت عصاتك بنفسج .. وضـحكنا لأننا أصغر من مدلول الحزن فى عيون الزهرات الدامعة ..

وتسابقنا - أنت وأنا والرفـاق - فى اختراع أسماء لأشـجارنا هى اليوم مـا بقـيت .. بعـد كل هـذا السكون الذى مـررته على قلبـى .. انطلق كل الرفاق من عمرى إلى بُعد لم أتخيلهم فيه .

"أنا لا أذكر سوى لمة تتوسطها أنت بالحكى والغناء"

ما بقى سوى أنت .. وشجرة بنفسج مختنقة بطفولتنا .. تسرى فى خلايا أيامى باطمئنان .. !!

ويأتى وجهك الناحل عبر كثير من مراحل عمرى راكضاً فى خلاء الأفعال من مساحات للبراءة .. والتذكر .. والأمل .

ويهرب لمعان صغرنا .. دنيتنا المحدودة داخل مربعات لعبة (الحجلة) وأطواق (الهيلاهوب) .. ولا يبقى سوى صوتك يحكى عن السندباد الهارب - دوماً - فى الأساطير .. وكانت البلاد الباردة تأخذك من وسطنا.. تتحسس الثلوج الشيقة .. تغلق عيون الحكى .. وتمضى سابحاً فى بحار السندباد ، تعلق فوق أطراف العصى أشرعة .. وتجادلنا فى النهار .. وأنت مقتنع أن الجزر تسكنها حوريات (تشبهنى) .. تربت على شعرى المعقوص .. وترجونى بحزم أن أحرره من قيود العرف .. وأنطلق .

وتصمم أن تبحر .. تخلع أسماء أشجارنا .. وتركل الحفر .. وتفرد شرائطى فوق كل ما اغتنمت من دهشتنا .. وتعلن أنك الربان .. وما علىَّ إلا أن أكون لطيفة . وتدعونى أن أبقى فى ركابك .. أن أذوّب زهو يأسى فى ملح بحرك وأنا أبتسم .. أن أكدس البنفسج فقد حان وقت التغير . وتضحك باستهتار عامل لحويلة تخلى عن مبادئه وأصابه غباء حقيقى بعد حنكة .

تقتلع أشجارنا .. تستلب منها زوارق مبهمة ، وتمضى فى المحيطات الغادرة مجنوناً بالترحال والسطوة .. وقوة يدعمها سلطان البحر ..

ووشوشـات الريح وعبق المجهـول وتدور دفات السنين نحـو جزائرك التى حررتهـا من سطوة مشاكـستنا .. وتفاخـر بالأسلاب فى تجوالات فـتوتك المرسومة .

"أنا لا أذكر غير لمة الرفاق بلا مـلامح .. يدقون أكفهم لحظة أن شرعت العصى .. ويهـرولون بالتعـاسة الغبـية لحظة انكسار أمنـيتك الفضـية تحت وطأة الزمن .."

لكنى بك أقسمت فى ليالى المفاخرة .. وتمنيت أن تثوب وتضحك مثلنا .. وأنت تغرس يديك فى فرح طفولتنا .. لتزهر أمكنة لم تعصف بحدودها الهواجس ولم يخلقها التمنى .. ولم يدركها سندباد .

***

ياسمين

(١)

فى غبشة الصبح تخرج كل يوم من حجرتها القائمة على جانب الدرجات المؤدية إلى براح الشمس .. تفترش فروة الخروف الذى ضحينا به منذ شهور .. وتسحب على رأسها شالاً .. كان فيما مضى جزء من أناقتها فى الأفراح .

أم اسكندر .. فى الستين أو يزيد عندما كنا نشاكسها وكنا نملك البراءة والانقاد .. تخلط أسماءنا كل يوم وهى تنادينا دونما داع .. لنتوقف جانبها فتقص حكايات غابرة لا تمل من ترديدها دون حذف أو إضافة أو حتى تغيير فى الكلمات .

تخطئنا جميعاً .. إلا هى .. ياسمين .. تزعق عليها كل وقت .. وكل يوم .. فتأتيها رامحة ومطيعة .. تفرد طفولتها عند أقدام طيبة أم اسكندر .. وتحلان جدائلهما المتناقضة ، تفرش ياسمين شعرها على شعاعات الشمس وتقهقه باعتداد .. تنهرها أم اسكندر قائلة :

"تعالى يا بنت أضفر لك الذهب .. كى لا تنالك العيون المستديرة" .

تهجع ياسمين تحت أيدى أم اسكندر برهة .. لتخرج كما القمر الشفيف .. تلقى جديلتها الذهب خلف طفولتها وتباشر مهام الاعتناء

تفرد أم اسكندر شعرها الفضة .. وتطأطأ الرأس للأيدى الصغيرة تعبث فى براءة مــصــقـولة .. تلـملم الجـديلتـين التى أتقنت على المـدى الطويل صنعهما وتقول :

"قمر يا خالتى .. ليتنى أصبح مثلك ".

وتدندن أم اسكنـدر فى خلوتهـا مع ياسـمين غنوة تـكسـر بهـا سكون القلب الوحيد وتقول للبنت القمر :

"جعل الله أيامك مثلك " .

تضحك يـاسمين وتنفلت إلى جـمعنا .. لنتسـابق فى خدمـتهـا والفوز باهتمامها .

(٢)

تفتح البنت ملامحها للسنين .. وتترك انصـهار طفولتها للزمن .. تتفتق الأنوثة عن كيان أضحى حـلم كل منا ، فسعينا بتصميـم خافت إلى العثور على طرف خيط شرنقتها التى باغتتنا بها .. منذ وصلت بالسنين إلى عتبات الثامنة عشرة .

البنت ياسمين كنت أعشقها بفخر وإقـدام .. كما عشـقها أيمن خلسة .. وعشقها الباقون .. وكل من صادفها ..

جلست البنت القمر تهدهد أم اسكندر بأحلامـها الطازجة ، "والمقدسة" تهز الرأس .. وتوسع عيون الدهشة والاستعداد للنصح ..

كنا نعرف أن مفتاح ياسمين عند أم اسكندر .. فبـدأ كل منا يسعى إلى

حضرتهـا .. نلاطفها .. ونقدم لهـا هدايانا الصغيرة .. نؤانـس وحدتها فى غيـاب ياسمين .. ونهدهد أوامرها فـى صمت واستعـداد لكل ما يمكن أن يطرأ على فكرها .

لكن ياسـمين كـانت تهل .. فننكمش فى اعـتـذار ضمـنى على إتلافنا لصولجان وحدتها .

(٣)

يوم تخرجنا فى الجـامعة .. ضجت الحارة بالفـرح إلا ياسمين .. هربت إلى جسد "المقدسة" تنظفه .. وتجدل شعرها الفضة لآخر مرة .. وتتلو كلام الله .. وترتل صـلاة النصارى وتقبل المصـحف الذى اعتـادت أم اسكندر الاحتفاظ به .. وتضعه علـى صدرها ملاصقاً للصليب الذهبى الذى أهدته لها فى عيد الأم .

وتغلق ياسمين حـجرة أم اسكندر .. وتعلق مفتـاحها فى المسمـار نفسه مع شهادتها .. وتمضى إلى الدنيا .

(٤)

كل منا تقدم لخطـبتها ورفـضت .. وكل منا حمل عـشقه للبنت القـمر ومضى تاركاً لها الوحدة مع رحيل كل الأهل .

"تزوجت وعانـت وأنجبت ابنتهـا مريم .. وفى غـمرة الأعـوام سقطت الابنة من حافة الانتماء للوطن وسـقط الزوج من شجرة الحياة .. وسنوات الحـيوية تمضى مـسـرعة .. وتهـبط كل وقت درجـات السـلم ولا تسـتطيع

الصعود .. حتى استقرت فى حجرة أم اسكندر"

سنوات متراكمة مرت ونحن خارج الدنيا الجميلة التى ما غادرتها ياسمين أبداً .

عندما عدت من بلاد الغربة و "المال" كانت حفيدتى ياسمين تسبقنى إلى الحارة الندية التى أضحت بوصلتى وأنا تائه فى متاهات القارات .

وجدت ضمن ما وجدت أطياف ماض أنا كنته مع أصحابى .. هولاء الذين تواصلوا مع أرحامهم فى حارتنا الجميلة .. أيمن صديقى كان هرماً جداً عندما التقيته .. حقاً رأينا بعضنا على مدى تلك الأعوام لكنها كانت قليلة كالزوال

ناديت من باب السكة بأعلى صوتى :

- ها قد عدنا يا ياسمينا ..

اطلت من جانب السلم برأس فضة وهى تسعل سنواتها الستين .

- من ينادى ؟

- أنا يا حاجة

وخرجت تحمل فى يدها فروة الخروف البالية .. يستر كتفيها شال كان جزءاً من أناقتها

نظرت إليها .. أم مريم .. ياسمينا الجميلة .. البنت القمر .. واستكنت أمامها كما كنت أفعل أيام الصبا والتحدد .

جلست ياسمين تفرد شعرها الفضة وتغزل حكايات أنا عشتها معها ..

وترددها ولا تمل أبداً .

عندما تلمح ياسمينا الصغيرة تقول لها :

- تعالى يا بنت أضفر لك الذهب كى لا تنالك العيون المستديرة .

تهجع البنت ياسمينا بين أيدى الحاجة أم مريم لتخرجها قمر بجديلة ذهب .

تفرح البنت وتتقافز بالعمر والاطمئنان .. تقول :

- ألملم لك الفضة حزمات يا خالة ؟

وتحاول أن تجعل الجديلتين سارحتين كالسنين الهنية وتضحك وهى تقبل الوجنات اليابسة .. وتقول :

- قمر يا خالتى .. ليتنى أصبح مثلك !!

تقول القمر للقمر :

- جعل الله أيامك مثلك .

وتهجعان إلى وحدتهما .. تتضاحكان .. وتفككان اللحظات إلى حكايات ربما يتذكرانها غداً .. !!

***



حافة اليقين

كان على أن أذهب ، وأن أتركك على حافة الشك فى أن أعود . وعند أول منعطف تواريت من حياتك القاحلة التى ما كانت تحوى غيرى .. لم أفكر حتى ماذا ستفعل لتنقل خطوتك التالية بعدى عليك أن تجرب مواجهة الطريق دونى .. وأن تجلس فى ركن الحديقة بلا انتظار . وأن تكتب ولا تقرأ أبداً .. وأبداً لن تعرف رأيى .

عند باب الصديقة التى اختبأت فى دعوتها .. لم أتوقف برهة لأستعيد توازنى .. ولم أرتب طريقة أسلكها فى هذه السهرة التى أبداً ما لبيت مثلها .. قطعاً لن أكون أنا هذه الليلة .. وحتى تلك لم أقررها أيضاً .. تركت نفسى غارقة فى انتهاء التجربة دون أن أرفع يدى باستغاثة .. ودون أن أقاوم تيارات تنازعتنى طويلاً وأنت تضرب بمجدافك المجنون فى عمق نهرى .. أو وأنت تطوى الشطآن من حولى وتتركنى أنسكب من حواف التوازن .

أخذتنى الصديقة إلى ركن الضيافة .. أقبل بعض الناس الذين هم أصدقاء .. وأجلس عائمة فى شخصية تلبستنى أدرء بها فراشات الذكرى التى اشتهت جروح الافتراق .

كنت معهم ربما .. لكنك كنت تجتلبنى بمهارة صياد لم يترك موضع فى عمرى دون فخاخ .. ضحكت بافتعال كما حدود الشخصية المرسومة فى

جلستى . وحكيت نوادر غبية .. وتقمصت طريقتك فى الكلام وأنا أرتل قصائدى التى أسدلتها فيما بينى وبين النسيان .

واستعرت لكنتك المميزة وأنا أدندن معهم :

يا ليت يجمعنا للحب موعدنا

فالشوق يزرعنا .. والبعد يحصدنا

والهان يتنظر .. والشوق يستعر

والبيد تعرفه .. والليل والقمر

ونضحك ، وعيناك العسليتان قد خانتا وعودك التى كانت أيضاً كاذبة .

"تفصح النساء عن كل شىء فى المخادع "

قلتها وأنت تلملم القطرات المتبقية من النشوة ..

وها أنت تكتبها .. تلك البنت التى ابتسامتها تتسع مثل عمران المدن ..

وأين أفصحتما .. ؟!!

وانهمرت مع الأغنيات .. والضحكات الزائفة .. والرفاق الغرباء .

"تمنيت لو أنك لم تخلف موعدنا فى آذار"

وأن تأتى فى آخر نيسان .. وأن تفتت

ابتسامتها تلك البنت التى رسمت ملامحها بعيداً عنى .

لكنك هناك فى البلاد البعيدة لم تعد تذكر وعودك الكاذبة ولا أن

عيونى لامعة بعشقك .

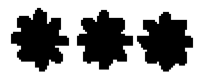
وهذا رجل آخر أتركه على حافة اليقين .. ولا أعود .. وأتداعى بين الأصدقاء على صوت "كاني روجرز" .. وبجانبى بالضبط جلس النبات الأخضر وديعاً .. لم يلحظ المنشغلون بضجيجهم أنه مثلى .. لم يفتح مسامه أبداً إلا لمن يحب .. وخلسة تلامسنا فى صفاء .. ازداد روعة كما بالضبط كانت لمستك الأولى .. وأنت تربت على خدى دون شهوة .. وبوداعة تقبل يدى كبداية لفتح المحراب وأربت على خد النبات الأخضر القابع فى الركن مثلى .. وأعبث فى خلاياه المتعطشة إلى حياة .. وأرجوك أن تكف عن تفجيرى لكنك أكملت طرح رنجاتى التى أرهقنى توغلها فى روحى لحد السكون .. وقبلت الورقات المنتشية .. وأنا أتمناك ..

"لكنك لن تأتى فى آخر نيسان"

وهذا الواقف بانتظارى تماماً لم يكن فى عمرى إلا لكى أكون لك .. هناك أنا تركته ينتظر على حافة الشك .. وأنا لن أعود ..

"وها قد انتهى نيسان من زمن"

والنبات الفائر ينتظر لمستى الأخيرة .. وأنت لن تأتى .. والرجل الواقف بانتظارى قد مل الانتظار .. ولكنى أبداً أردتك أن تأتى لكن نيسان هرب من النتائج ولن يعود .



كان .. مرة ..

ولكزته بشدة هذه المرة .. طوحت الحقيبة التى تدلت ثقيلة من كتفى إلى كتفه وبعض ذراعه ..

رفع وجهه نحوى بنظرة زاجرة .. لكنى سددت شهوتى إلى افتراضه .

منذ أن صعدت المترو .. هنا أنا واقفة جنب مقعده مباشرة .. يدفعنى الازدحام العادى إلى أن أقترب منه جداً .. لكن ليس لحد الالتصاق الذى رجوته.. ومع ذلك تخللتنى رائحة شعره التى أدهشنى أنى اشتهيتها بحمق.

تحرك جسدى دون دافع نحوه .. حتى انحشر كتفه ببطنى .. وتدلت ذراعه إلى حيث أردت أن يكتشف مكامن ارتياحى .

كنت واثقة أنه لن ينظر إلىّ .. لكى لا تنثال شراهته نحو انفعالى .. فيتشارك الموجودون معنا .

تعمدت أن أنحنى بشدة .. بحجة التقاط قرطى الذى أسقطته حتى لامست صدرى ركبته .. فتشهيت لو يفك أزرار اللحظة ويلتقم انتصاب رغبتى .

(كان الرجل الذى أنضجنى بلا زمن يحتكر إفصاحى عن اللذة وهو يهدل صدرى الناهد الذى أعجبه كثيراً .. وأعجبنى ..)

انحنى معى بحثاً عن قرط حجتى .. تقاطع توهجه مع عينىّ وهو يتسلل

عبر أنامله إلى ما بعد ظنى

(قال الرجل الذى عاشرته أكثر من ثمانى مرات متفرقات إنه دوماً يحن إلى رائحة نفَسى الشهية ..)

انتصبنا معاً .. والقرط نصفين بيننا .. وهو يدفعنى إلى زحمة كائنة ويواجهنى مشرّعاً ذكورته نحوى .

تخلخل الهواء بيننا وهو يضغطنى باستفاضة فجرت ينابيع الرجفة ..!!

***

نقطة انحسار

(١)

كنت أعلم أنـه سيـعـصف بى .. ومع ذلك كنت أنكفئ عـلى قلبى أعبد دروب الشوق فيـه .. وأنحى شظيات الغدر والتخلى عن حكاياتى الفائتة .. وأتخير حرير متكئه الذى قاتلت السالفين من أجل ألا يشبكوا أعصـابه . وفتـحت أحضـانى باتساع الكون ليـأتينى .. وكنت أعلم أنه سيعصف بى .

(٢)

بسكينة من عرف النتـائج سلفاً .. أفرد لوم السنين على مرايا الشجن .. ألون الأحـداث بما حـفظت ذاكـرتى مـن نثـرات الطفـولة المضـمـخـة بالتشـتت .. تلقينى الألوان فـيمـا بعد محنـتى .. يرتعد القلب .. تتـشقق روحى جدباً .. أنزلـق إلى فضاءات الوحـدة .. كمن يسير على غيـمات جرفتها رياح المواسم .. لم أعرف أبداً موضعاً لتشبثى لو تحولت الغيمات مطراً .

(٣)

قال :

أنت مجرد عقل محموم .. يقاسى ويتهدل .

وكنت أعلم أن الحقائق لابد تتكشف ما دام نابشاً فى أعصابى .. وسارحاً فى شرايينى وفاتحاً كل صمامات التحكم فى مساراتى المتجهة إلى حيث لا ارتجاع .

قلت :

لا تدعنى أجف كنقطة ماء انفرطت من عقد الأمطار الصيفية .

لكنه داعب مفرق شعره .. فافزعنى من مخبئى إلى جبينه .. عدوت خائفة .. لاحقنى بمبالاته الدقيقة .. قفزت إلى ركن عينيه .. غلق الدنيا تحتى .. انحدرت إلى فمه ، ابتلعنى .. ثم بصق .

(٤)

على الطرقات أحمل الخيبات الحنونة .. ألهو بحبات كثيرة من مطر .. مختلف المواسم .. أدحرجه من مفارق كثيرة فى عمرى .. إلى دروب التلهى .. يختلط بعضه ببعضه .. ويأوى معظمه إلى كهف عينى .. ينساب مع دمع أرهقنى حمله .. ينزلق إلى شفتى الجافتين .. يبلل انتظار طال إلى ما بعد الشوق .. ابتلع عذوبة كثيرين يتعذبون لأجلى .. ولا ابصقهم أبداً .

***

الدور الثالث

تزنُّ الطائرة ..

تهدر الأيام فى حقيبتى المنكسة .. عائدة أنا كحقيبتى .. أرزح فى نير الفشل ..

لا تتأسف ..

آخر كاماتى إليك عبر السياج القصير لبيتنا .. لبيتها .. تلك التى تبدو أكبر من حجوم كل جبال الدنيا فى وقفتها بيننا ..

نبتت امرأتك فوق صدرى كشجرة صمغ مجروحة .. كل ما فيها ينزف لزوجة تسيل داخل فتحات عمرى العزلاء .. ملأتنى صمغاً .. حالت بينى وبين الهواء والفرح .. !!

تزنُّ الطائرة ..

وتهدر الأيام ..

وقلبى الذى كان يضج بالعشق والسعادة - منذ شهور فقط - غارق فى الصمغ الذى ضخته امرأتك (المسكينة .. الأليفة .. المسنة) .

آه .. يا فراس ..

أين كتفك يلوذ به خوفى من الارتفاعات .. من اهتزاز الطائرة .. من عودة رتيبة ومقفرة .. شتان ما بين رحلتين .. الأولى إلى لندن .. بلد العجائب .. والبج بن .. ومسلتنا القائمة على التايمز .. ونوارسها الشاردة .. وحكاياتك الطويلة عبر الهاتف ورسائلك الحبلى بالتفاصيل .. ودقائق البطاقات البريدية .. والفرح بالمطر .. وناس كثيرون لا أعرفهم .. عشقت أصواتهم وصورهم من خلالك ..

آه .. يا فراس ..

وتزن الطائرة ..

ورحلة عودة إلى القاهرة .. الغاضبة .. التى تركتها بفرح .. وعدوت باتجاه الممرات قافزة .. مستعجلة ..

القاهرة التى نثرت فى طرقاتها ذكرياتى .. ورفضت أن أحمل معى أى لحظة تربطنى بها .. وخلعت منها كل جذورى وألقيتها فى سلال تعلقى بك .. علها تذبل .. علها تذوى فلا يبقى مبرر لذكرها .. أو تذكرها .. !!

وتزن الطائرة ..

وأعود دمية ضاعت بطاريتها .. لا بريق .. ولا فائدة ..

(لقد كنت دمية منذ عرفتك ..)

اين سأذهب .. ؟! ..

هذه المرة أقولها لنفسى ولا أبتسم ..

آه يا فراس .. للعودة طعم انكسار ..

فى الرحلة السابقة قلتها لك وأنا ضاحكة وموقنة أنى أقصد موضع .. جدران وسقف ومؤانسة .. مع أنى كنت أقصد (غربة) .. لكن يدك كانت تطمئننى .. كتفك تسند أيامى .. وعيونك تحتوى صغرى وخوفى .

غريبة حقاً تلك الظروف .. الآن وأنا عائدة إلى وطنى .. لا أعرف لى مقصد .. لا يتحدد فى مخيلتى مكان له جدران وسقف وملاذ .. موضع أنكمش فى ركنه لأبكى ..

آه .. يا فراس أين حمايتك لى .. وجودك الذى كان يهبنى اطمئناناً وراحة .. !!

أود أن أبكى .. لن أكابر وأقول .. ليس ضعفاً يا فراس وإنما ، أين حمايتك لى .. ؟! .. يدك المهذبة تتخلل دمعاتى البرية وتدون بها قصائد وأحاديث .. لن أقول إنك تخليت عنى .. سأحاول ألا أذكر وأتذكر أنك تخليت عنى .. مبررك قوى وعادل .. ابنتك .. تلك الحكاية البائدة التى تلاها الرواة والكسالى .. ابنتك الصغيرة .. وقطوف الطفولة فى عينيها دمعات تلمع بالرجاء .

قالت : ابق .. !!

وبقيت .. وبالضرورة تبقى امرأتك (الصمغية) .. طفلتك وامرأتك .. وأن المقتحمة لوكر زوجيتك .. والذى بيننا منطق الإقصاء .. !!

أين اشتياقك الذى دلف عبر عمرى فى لقاءاتنا الشهية .. فى القاهرة ..

الماعون .. الذى جعلنى أراك بحجمه تملأ الكون فلم يبق فى عقلى موضع لمنطق ..

قلت إننى ضرورة ومعادل أصلى لعمرك .. ولن تتحرك هذه المرة إلا وأنا معك .. (نتزوج ونعود إلى لندن) .

ولندن يا فراس ما كانت تنتظر عودتى .. لم تعرفنى .. محايدة المدن التى لا تعرفنا .. ومحايدة مشاعرى فى الغربة .. لن أكذب .

(صغيرة أنت وسهل عليك البداية ..)

قلتها لمشاعرى التى امتلكتها .. وماذا أفعل وأنا يا فراس ما عشقت غيرك .. وأريدك بكل فرحة البداية والاستمرار .

قلت : لندن فيها بيتى .. كبير .. وامرأتى كبيرة أيضاً .. سنترك لها الدور الأول .. والدور الثانى .. ولنا معاً الدور الثالث حيث أقبع الآن .. حيث قبعت منذ تزوجتها .. فى الدور الثالث كل ما يلزمنا ..

وما كان يلزمنى سوى بضعة أمتار أقف فى نهايتها أنظر إليك وأنادى الدنيا إلى قلبى وأفرح .. وما كان يلزمنى سوى ورقة أرسم بأعماقى فيها سديم عينيك .

آه .. يا فراس .

ما احتجتك قدر الآن .. لماذا العودة مؤلمة ؟ .. والطائرة تزأر بانزعاج .. وقلبى يحنو .. وتلك الأليفة تسوطنى كلماتها المتزنة المدعمة بالخبرة

والمبررات الطيبة .. وطفلتك تبكى .. فيجرحنى أنين قلبك الذى احتوانى..

ما كنت يا فراس لأتركك بين دمعة والتزام .. !!

واندلعت نيــران كـبريائى المتفــرد بعـيـداً عنك هـذه المرة .. وسكبت جـروحى فى الحقـيـبـة .. ورتبت عمـرى مع أشـيائنا الصـغيـرة .. وطويت انسحاقى على درجات الدور الثالث .. !!

آه .. يا فراس .

وأنا ألملم الذكريات اليـابسة من حول مـسلتنا المغتربة .. كنت مـثلها .. محمولة كـانت على القبوع فى بلاد غريبة .. بعيدة لا تنـتمى إليها بالشكل أو الأصل .. وكنــت مــثلهــا .. لســت من هنا .. لم تـنتظر لنـدن فى يوم عودتى.. لا تعـرفنى الشوارع والعصافـير والجدران .. لم يعـرفنى التايمز .. مسكونة أنـا بالنيل .. (تسكننى الغربة واليـأس اليوم يا فـراس) .. عدت لا أملك من الأرض مـوضعـاً أنتمى إليـه أو نسمـة تحمينـى .. معلق عـمرى (كالطائرة بالضبط) .. بين ظروف غاضبة ..

ما عـدت أنتمى لك .. تركتنى بـبساطة .. رحلة قـدوم ورحلة عودة .. وبسرعة موافقتى على امتزاجى بك ..

(ألم تدرك قدر عشقى وتمسكى بك؟!!)

متلاحقة المواقف ..

قلت لك : (أعلم أنـك تتـعذب .. ابنتك وطفولـتها وبراءة عـمرها ..)

مـا كنت يا فراس أبداً معك كبيرة .. لو دققت فى عينىّ لاكتشفت طفولتى المحتاجة إليك بقوة .. لدعم أبوتك وحكمتك .. لماذا رأيتنى كبيرة .. ؟!!

لماذا قبلت تضحيتى وادعائى الكاذب بأنى قوية وسأتحمل ؟

هل عرفتنى.. ؟!

مدى احتمالى لبعدك .. ما تعدى مغادرتى درجات الدور الثالث ..

ضعيفة أنا ومتألمة .. أبكى بحق يا فـراس .. دموع طفلة مجـروحة لا تقـوى على المزيد .. والمزيد صـائر .. يمخر الأفق بسـرعـة طائرة صمـاء لا تدرك تمزقى فى كل ياردة تبعدنى عنك فيها ..

لو تشعر الطائرة .. !!

لو عرفت امرأتك .. !!

لو عرفت طفلتك .. !!

لو أدركت أنت .. !!

آه يا فراس .. آآآه .. لو أدركت أنت .. !!!

***

فراغ محدد

فى الشارع كانت كثيرة هى التـفريعات الجانبية والحكايات التى لم أكن أعرفها وعاشها .. الآن أنا أعرفها .. ويعيشها - معى - بأثر رجعى .

انداح الصمت المعلق فى أهداب اللحظات الفاصلة بين حكاية وأخرى عن لمعة فى عينيه التى ارتسم فى بحريهما كيانان كانا يندمجان.. وكنا هما.

لمس أطراف أصابـعى الجافلة من كل الرجـال الذين صنعتهـم بحروفى وكانوا يتـساقطون بحكايـاتهم من أفقى . ولم يبق حـتى محاولاتهـم لفهم تدفق عـيناى نحـو الذى لا يمكن أن يـأتى .. ولم يدركـوا أبدا أن لمسـاتهم محاها الصابون وبعض الماء الذى أضحى فى ذاكرتى الآن آسناً .

قال كلاماً عن التشبث بالحلم .. وكنت أتشبث - ضارعة - بنظراته وما وصلنى من دفء مـجاله .. وألملم بتأنٍ وحـرص كلماته التى نثرها كثيرة حول كيانى .. لكنهـا تناثرت بتلقائية فى فراغ محدد ظننته اشتبـاك قضايانا بالدنيا .. لكن لم يكن كذلك .

وللحظة تجلى شجن يشـبه ذلك الذى انتابنى صـباحاً وأنا أقرأ قـصائده التى أهداها لى .. ولم يكمل بعـد كلمة (الحلم) فكتب لا أعـرف .. ولكنه كان يعرف ، وأنا أيضاً .

وكان الفراغ المحدد قـد امتلأ بتلقائيته وحكاياته ومشاعـره وبقايا تعاسة صافية شكلها حلماً يتدثر به وكان يقول :

(يجب أن نتمسك بـالحلم فهو الذى يميزنا نحن الشـعراء وهو ما يطمع فيه الآخرون الذين هم غيرنا .. وليسوا منا ..)

وكان الفـراغ المحدد بعدمـا امتلأ به طازجـاً ومفروداً .. قـد أصبح أنا . عندما وقف النادل فيما بين دنيانا التى تنمو باتزان لا يشبه الاتزان المتداول.. وبين الحياة التى فى أوجها حولنا ولم نكن نحن فيها .. كان هذا يشبه الخط الفاصل بـين الغيم والمطر .. وكنت وأنا أرشف القـهوة السـوداء أحاول أن أحفر حـول كلماته وأعمّق لكى أدركها مكتـملة ولا أنساها .. ولكنى الآن لا أحفر ولا أكتبها وهو ليس فيها

كنت أعلم أنه عرفنى كما أنا عندما لملمتى من قصائدى التى نثرت فيها نفسى متجردة من كل المكتسب والذى ليس هو أنا .. ولن أكونه .

وكنت قبل الحين ألمح كتاباته فى الصحف فـأقصها وأحفظها .. وكنت لا أعرفـه ولكنى أدرك أنه (بعضى) فـى مكان آخر لم أكن أعـرفه ، وكنت أيضاً قـد لملمته من الحـروف الكثيـرة وشكلته وجوداً لم أحـاول أن أفصل تعاسته وألمه الماضيين ولم أضف له أبداً من حلمى ولم أرد إلا أن يكون هو كما كان وكما هو كائن .

برقت عيناه "الأفق" بماضٍ أخضـر فى زراعات الذرة .. وكانت البطات فى اللوحـة المقابلة لىّ يرفلن فى ذرة نشـبه الحنطة ويوشـوشن الألوان التى أبداً لم تكن منـاسبـة لـتعـاسـة البطـات اللاتى فـقـدن القـدرة على الحلم بالتحليق.. ولم أكن مثلهن لكنى لم أحاول التحليق أبداً ..

(فقد أحـببت الأرض جداً وتفاعلت مع الأرصفة والشـوارع بشجرات

الجازورينا والوردات الصفراء وعشقت أن أكون ثابتة فى مكان ..)

قال : أنت حلم يجب أن يتحرر .. بعد مائة عام عندما تتناثر المجلات التى تحمل زاويتك فى أيدى التداول وعندما تتراص كتبك على أرفف تمتد إليها أيادى رائقة وولهة .. وتقرأها قلوب عاشقة وعقول نابشة فى الحلم ستلبس الكيانات الأخرى ما أبدعتى.. والتجارب متماثلة ولكن ليست متطابقة .

ستكونين حالة تتبعها حالات .. لكنك المرجع بكتاباتك ..

وكان هو مثلى .

عندما التجئنا إلى بعضنا بعدما امتلأ الفراغ المحدد .. كان ثمة أفق ممتد بيننا صعب أن تكسره أية نظرية فى انكسار الضوء أو ارتداد الشعاع .. مساحة من البراءة الرهيفة فيما بين صمتى الذى يستوعبه وبين إتقانه لقراءة قصيدته عن البنت والقارب ..

وكان الرجل فى الطاولة التى أمامى ينفث نرجيلته فى بلادة أرهقتنى .. يرقب انفعالات كيانى الجديد والذى كان قبل أن يضبطنى.. فراغ محدد

وكان يشكل مع البطات تراجيديا آسفة لسكون الكائنات الغبية فى دواليب أفرزتها المادة الثقيلة التى لم تشعلها أبداً حيوية الأداء على خشبة الكون .

كان للبطات عيون منطفئة ونرجيلة الرجل أيضاً بلا نار . وعينيه كلمحة الظل وسط الظلام . قال ونحن نركب المترو صامتين هذه لحظة يجب ألا نعبرها دون مبرر .. هنا يجب أن نقف طويلاً .. وأن نسجلها على

شريط فيديو تكون عدسته زووم على وجهينا لنحتفظ بجمال الانبثاق والتسامق ، وقلت : حروفنا هى عدستنا الخالدة .

على المحطة كان دفء يديه اللتان دسست فى حيرتهما يدى ، يضرم فى كياننا عشقاً شفيفاً وهادئاً .. يشبه ميلاد كون فاجأه السديم بالحنان والاحتواء .. وشبكت أصابعى حول أصابعه الطويلة السارحة بالحياة فى عمق عمقى .. وكنت لا أستطيع أن أغادره وهو أيضاً .

لكن أفقنا الممتد فيما بيننا أبداً لن تكسره مساحة زمان أو مكان .

قلت وأنا فى عينيه أرف : كل عمرى كنت أجنح إلى تكثيف المسافات إلا الآن .. فأنا أريدها مفرودة ومتحدة بالبراح كى لا ينفصم عنى ذلك الذى كانت أصابعه طويلة وعيناه سماء .

لكنه على الدرجات التى تركنى فى أعلاها وسرسب أحلامه من كف يدى قال : لا تنسنى هذه الليلة .. وكنت قد أردته أكثر مما اعتزمت فعلاً وكذلك لن أنساه كل ليلة .

نزل درجات أخرى وفاجأنى بنظرة كانت فيما مضى موزعة فى قصائده التى حفظتها فى عقلى وتلك التى فى حقيبتى.. وأيضاً الكتاب الذى بجانب شرائط فيروز على مكتبى.. وقال دون أن ينزل.. ثم نزل دون أن يتكلم ..

لكننا اتفقنا وأصابعه الطويلة تعبث فى روحى عن أن ندون حكاياتنا البسيطة ولا ندرى أبداً لماذا ندونها .. وها أنا أفعل .. وأستعير طريقته فى الحكى والكتابة .. وهو الآن يفعل .. !!

***

معزوفة شوق

ليلة أخرى بدونك .. ودمعة أخرى لا تجد أصابعك لتستقر .. وضحكة متشحة بالعتاب والعجب .. !!

أين أنت ؟!!

وتموء الليالى فى ارتعاب .. ويعشعش الرعب فى قميصى ومشاعرى ووسادتى ، وتنسدل بقايا الحلم فى قلبى المسنون على لا مبالاتك التى تبدو طيبة .. !!

وليلة أخرى بدونك .. تنبت على مشارفها الهواجس والشجون .. تحولنى قندساً مجنوناً .. أتدحرج على أشواكى التى انغرست فى الطرقات التى يمكن أن تحملك إلىّ .. كيف ستعود إلى جزيرتى الناتئة فى ليال عذبنى فيها ابتعادك السقيم .. ؟

وتحولنى قندساً .. أتكور ضد المشاع ، أتحفز لمواجهة كل الخواطر إلا بعدك .

وتبتعد .. فتنغرس أشواك حزنى فى جلدى وأيامى وذكريات منسقة تقتسمها معى بانسياب .. وتنغرس الأشواك فى نخاع مخدعى .. ويخرج السهد من المرايا والوسائد وشعاع الضوء الوحيد المنبثق من بسمتك المعنونة

على صورتك التى بعرض العمر .. وأرجوك فى آخر كلماتى .. أن تدع النوافذ مشرعة .. وألا تغلق الأبواب .

لأن الشوك يؤلمنى .. والضيق يطبق على أحلامى بدونك وتنسدل الجدران .. وتهرول الزوايا إلى مشاعرى تشطرها .. تضيق المساحة بين قلبى وقلمى .. وتنهار كثيراً من حكاياتنا .. وضحكتنا الذى ما كان سوى ترجيع لصدى سوف يؤلمنى كلما انغرس فى أحلامى المشتتة .. !!

ليلة أخرى بدونك .. وأهرب إليك فى دحرجتى التى تخمش الوجدان .. لكن لا أجد صدرك .. أين صدرك الذى اعتدت أن أندس فيه كلما واجهنى العالم المقتضب بحكاية مريرة باتساع الألم ..

(عندما تداول أبى وأمى والمعارف والعالم حكاياتنا .. كنت أسترق السمع .. كيف ساكون رابع زوجاتك ؟! .. لم تهمنى التعليقات ولم أنو المناقشة .. فقد اتخذت القرار .. لا لم أتخذ قراراً منذ عرفتك فعشقى أبداً لا يتبع القرارات .. عشقى مكتمل .. واستندت إلى ذراعك ونحن نرتب أمانينا .. وعانقتك وأنت تلون أيامى بدفئك .. وأنت تعاهدنى أن ...)

عاصم ..

يا عاصم .. وناديتك فى ليلة أخرى بدونك .. ورجوتك ألا تدع الليالى تنفرط من عينىّ المسبلتين على آخر وعد منك مررته على شفتى ووجنتى وأصابعى .. بأنك قطعاً عائد بعد أسبوع .. اثنين .. شهر على الأكثر .. ولكن ليلة بدونك كانت كافية لأن أدرك أن الكلمات لا تتسع

لمدلولاتها .. وتمنيت لو بقيت .. لو لم يتسع عقلك لمقولات ربما لم يعنها قائلوها .. ربما ألقوها فى طريقنا كما يفعلون مع مهملاتهم .. وماذا يعنيهم؟! ليلقوا كل تلك النفايات واللوم حول ليالينا ..

(قالت أمى وأنا أجمع أشيائى على عجل لتصحبنى إلى بيتنا : لو أن لك أباً ما ارتبطت برجل يخلف النساء كما يخلف علب تبغه الفارغة..!!)

ولكن كنت ألملم إنسانيتى فى الحقيبة العاجلة .. لا يجب أن تمر لحظة وأنا بعيدة عن مكمنى فى صدرك .. عن دفء وعيك .. ورقة مجابهتك لانفعال عمرى المتقد ..

علقت أنت وضحكاتك تنسدل فى شعرى وفى كيانى وعلى عمرى .. (لن تكونى أبداً علبة تبغ فارغة .. أنت الشهيق الأبدى ..)

وقال أبى وأنا عند الدرج لاهية بالتسرب من الترتيب فى الهبوط .. وأنا أختصر الحيطان والمنحنيات والأسيجة ..

(لو أن لك أماً .. لبصرتك وأعلمتك .. !!)

وقال المعارف ..

(لو أن لك عقلاً لرأيت فارق العمر بينكما .. ولو .. ولو ..)

كيف يا هؤلاء .. وأنا مختصرة فى نبضة .. فى قلبه .. كيف وأنا نظرة شاردة فى عمره .. كيف وأنا بأكملى معزوفة شوق متكورة فى نقطتين جنب اسمه .. ؟!

وهربت إليك .. كتفك تسند أيامى .. أستسلم لروعة اللاوعى بمناطق عمرى الفائتة .. تسربنى لمساتك إلى شرنقة رطبة فى عمر قائظ .. تصنع أصابعك أنفاقاً من النشوى تجعل شرنقتى أرحب من الجنة .. وأغمض عينى .. وما فائدتهما وأنا معك .. وما فائدة كل الحواس وكل المدركات..؟ لكم أنت رائع .. كان يكفينى أن تضم يدى وأنت تسدل على عالمك .

وليلة أخرى بدونك .. وأنا أنشظى فى سكوتى المدوى عبر كثير من الوعود التى دونتها على ضعفى وخوفى وأنت تقطع الردهات والحجرات مسرعاً .. وكنت خلفك دامعة ..

وانتظرتك ساعة وساعة لتطمئننى أنك وصلت .. وانتظرتك يوماً ويوماً لتخبرنى أنى أوحشتك .. وانتظرتك شهراً وشهر لتقص حكاياتك .

وها أنا قندس .. أتكور على أشواكى ..أنزف ذكريات مبهمة .. يسكبها الشوك فى عينى وألوانى ووسائدى .

وليلة أخرى بدونك .. هاجمنى فيها رنين أجوف لهاتفنا ..

(هل نسيت رقم هاتفنا كعادتك ؟!) .. الو ..

كان صديقك سمير .. لا أدرى إن كان يطمئننى أم يطمئن منى لكنه تحدث طويلاً بلطف - كعادته عندما ينوى أن يكسر المرايا - هو من هشم مرايانا اللامة التى كنا بؤرتها .. بفكرته السخيفة .. فطار نثارنا فى البلدان.. هو من أشار لك أن تجمع أبناءك المنفرطين فى القارات البعيدة .. وتعتق علب تبغك الفارغة .. وأن تخلع أجنحتك وتقبع هنا .. - لكم أكرهه - لقد رتب لك الرحيل العاجل ..

كان مـا زال ينفث أبجديتـه المعتـمة فى قلبى .. كـان طيبـاً - وصديقى أيضاً .. لماذا أكرهه هكذا وكل ما فعله من أجلى كان جميلاً ؟!!

ليته يصمت .. له لكنة تغتال بقايا عقلى .. يزيدنى رعباً وتوجساً ..

كـان يضحـك ولم أفهم .. رحـيلك يحتلنى .. لو كنت هنا لأسكته .. لا كنت أعشق حديثه .. أو ليس صديق عمرك ؟

عاصم ..

لماذا يا عاصم كل شئ تغير .. حتى إدراكى العقلى .. ؟!

هتفت أستـوقفـه عندما عـبر اسـمك إلى وعـيى .. أخبرنى أن ابنتك الألمانيـة تزوجت .. وأن ابـنك اليـابانى لم يتـعـرف عليـك .. وأن طفلتك الاسترالية .. كانت تحب صديقتها .. وأن نساءك ضحكن من فكرة العتق.. وأنهن يحملن أجنة تشبه بلدانهن .. وأنهن نسين من تكون .. !!

آه يا عاصم .. أين أنت ؟

هذا صدرى متسع لآهاتك وصمتك .. هذا عمرى مـبسوط على درج احتياجك .. هذى يداى تلملمك من متاهات القارات اللاهية ..

آه أيها الرائع .. من عرفك مثلى .. ؟

وليالى أخر وقندس مهزوم العمر .. مـجهض الذكريات يشبه علبة تبغ فارغة .. متكور فى مخدعى .. !!!

***

ما بين الحلم واليقظة

(١)

الولد بين ذراعىّ .. تغطيه أوراق الكلينكس التى تبللت بفعل مخاض الولادة .. عيناه .. محا الحزن براءتهما .. فبدا مهموماً .. منكسراً .. وصامتاً .. أنا لم أعرف كيف ولدته ولكن هكذا وجدتنى أضمه فى صدرى العارى وأنا واقفة وسط خلاء أفزعنى أن أستشعر وحدتى فيه وأنا ضعيفة هكذا .. كنت واهنة بالفعل .. وأشعر ببرودة وحزن مدقع .

حاولت أن أبثه دفئاً وحركة .. لكنه نظر إلى وانحدرت دمعاته صامتة إلى جسدى فتشبثت به وأنا أتدفق حناناً وأمومة جعلتنى أنسى وحشتى وضعفى .. وأحاول أن أنظفه بحرص ولهفة .. وهو يلتقم صدرى الذى نمت أمومته ..

تحركت فى الخلاء لا أدرى أى طريق أسلك .. فلا علامات تهدينى إلا رغبتى فى أن أنجو بوليدى من هول أستشعره ولا أدركه .

ركضت وسط ميادين .. وعبرت طرقات كثيرة موحشة .. وتصادفت وناس عرفتهم على مدى عمرى ..

كانت عيونهم زجاجية ..

وكانوا يحملقون فىّ .. ولكن عتامة زجاج عيونهم لا تنفذنى إليهم ،

وأنا كنت خجلة .. أحاول أن أدارى جسدى العارى بجسد وليدى .. ولكنهم لم يكفوا أبداً طوال ركضى عن رشق إشاراتهم الخفية التى كانت تؤلمنى فى قلبى الذى بدا هو الآخر بلا ساتر .

(فى تلك اللحظة سمعت صوت أمى صاعداً من عمق كشك بجانب الطريق ليس له أبواب .. جالسة فى أرضية الكشك وهى تهدر فى وجهى الدامع .. لم تكن قد رأت وليدى المخبوء فى صدرى ..)

قالت وهى تحاول أن تطولنى بأيديها :

- بلغى خطيبك أن باقى على المهلة ثلاثة أشهر . فإن لم يجهّز خلالها كل لوازم الزواج .. عليه أن يغادرنا بلا رجعة .

قلت وأنا خائفة منها بعد أن تبدل شكلها إلى غول :

- لم يمر يا أم سوى ستة أشهر فقط منذ خطبتنا ..

وهنا تنبهت إلى أن علاقتى بخطيبى لم يمر عليها سوى ستة أشهر فقط.. فكيف ألد له طفلاً .. حتماً لن يعترف به .. ولكن أنا سأواجهه .. فإن المولود لستة أشهر ينسب لأبيه .. هكذا يقول الشرع يا أمى .. وهدرت فى وجهى :

- شرع من .. وحمل من .. !!

إن أمى قطعاً لن تؤرقها حكاية الشرع والنسب فى وضعى هذا إذ أنى لم أتزوج بعد ..

نهضت أمي من قاع الكشك وهي تزعق بتوتر .. وقد أمسكت شعرى بعنف .. ولم أستطع أن أخلص نفسى لأنى كنت أحمل طفلى الذى زاد وزنه وأضحى كبيراً وثقيلاً .. وعندئذ رأته أمي بين ذراعىّ ودون أن تسألني.. خطفته من أحضانى الواهنة وألقته على الأرض فتهشم مثل قارورة رقيقة . وفيما أنا أنظر مذهولة .. كانت قد اختفت بالكشك والهول.. ركعت أجمع الشظايا وألصقها فى جسدى العارى حتى أكملت التقاطه .. وتغطى جسدى كله بالشظايا .. والدماء ..

(٢)

دفعت جسده عني بوهن وأنا أكفكف شعث روحى .. أدرت عقلى أنفض تبعات الحلم من خلاياى .. كانت مشاعرى ثقيلة وقلبى قد خلا من حمية النشوة .. حاولت وأنا أتسرب من بين ذراعيه أن أقيم السواتر فيما بين عالمينا الكاذبين .. لملمت ملابس المدرسة التى بعثرتها الرغبة فى كل الجهات ، أحكمت صدرى المتمرد بحمالته الضيقة كما أمرتنى أمى بالضبط .. وأهلت كومة الملابس على طاقاتى وأنا أرتب ما تبقى فى ذاكرتى من حلول أنثرها ببراءة عند أعتاب أسئلتها الخانقة ..

أحاط جسدى بذراعيه التى ظن أنها قضبانى إلى رغبته .. وهو موقن أنى المرأة التى اعتلى حصونها .. وفك طلاسم أختامها .. وبدأ طريقاً إلى شهوتها التى ربما انفتحت بعده على المدى .

لكن فيما بيننا كانت تلال ملابسى المدرسية تفصل بين عالمين ..

وتحيلنى إلى حروف أخفيها عن أمى فى الهوامش وإلى أوامر كثيرة تدلف مع المشط إلى عقلى وتُجدل مع أيامى ..

(عند الباب سألنى عن اسمى الذى تراكم فى قاع حقيبتى وبين كتبى وفيما بين الإرشادات على ظهر كراساتى ..

رتج الباب خلفى دون أن يذكر اسمه .

على الطرقات التى صادفت خطواتى كنت وحدى أشعر بوحشة وخواء ..

يعرقل انطلاقى حنين إلى حياة أضمها فى صدرى

عندما سألتنى أمى عن التأخير .. لم أعطها تبريراً أبداً ، وهى لم تلحظ خطوط الدماء الجافة بين فخذىّ .

***

الفهرس

صدر للمؤلفة

- قدر من العشق (قصص) ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣

- السيقان الرفيعة للكذب (رواية) ، دار قباء ١٩٩٨

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيريس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة: رزق أحمد
سيرة عربة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
النميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
حبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
الكوميديا الخفية	محمد بركة
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب الجني	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
تسبيح الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة بوسكو	رشيد الغمري
صلاة المودع	صبري السيد
دنيــــا تماديـــا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
حوادیت لفندی	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَقْس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية . (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
غنيات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعانى فى بحرالتحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشي
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



سراديب

أجفف جسدى من نثرات الحلم هذا الصباح .. أستعد أنا لمقابلة رجل آخر .. وها أنا أنكمش عند أركان التخلى عن المواثيق التى بذلتها وأنا ذائبة فى انهمار غيثه الذى رطب جدبى .

وينهمر الماء الدافئ يغسل ذكريات الأمس .. ولم يكن يزيل أكثر من غلالة الزمن المهلهلة عن براكين العودة إلى منابع ذلك الرجل البعيد .

أنا لم أستطع قط التخلص من نظراته التى أرهقني حملها في كل الأيام الفائتة .



مركز الحضارة العربية